

المجلد: 08/ العدد 01 جوان (2024)، ص.ص. 176-184.

اللغة الشعرية وقصيدة التلاخ النصي لدى أدونيس "تقنية القناع أنموذجا"

The Poetic language and the Textual Cross-fertilization in Adonis's Poetry: 'The Technique of the Mask as a Model'

شناوي علي

ali.chanaoui@univ-tiaret.dz

الملحقة الجامعية قصر الشلالة جامعة ابن خلدون تيارت
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2024/06/02

تاريخ القبول: 2024/05/03

تاريخ الاستلام: 2024/01/03

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى مقارنة اللغة الشعرية للقصيدة المعاصرة - قصائد أدونيس أنموذجا - التي تسعى إلى خوض غمار التجريب والانفتاح على الأجناس التعبيرية الأخرى، والبحث عن شكل فني تحقق من خلاله هويتها وسرّها الجمالي المتشظي بما يحقق نوعيتها ويجسدها كخطاب متجدّد. وضمن هذا الأفق، توصلت الدراسة إلى شعرية تواشج السات الفنية، ليتشكل تبعا لذلك خطاب أدبي متنوع ومنفتح، انفتاح اللغة الشعرية التي يتّظهر من خلالها، من خلال اعتماد أساليب وتقنيات جديدة كتقنية القناع؛ إذ اقتحمت بفعل التجريب حدود الأجناس وتخومها، حين تلامس الخصائص الفنية وطبيعة البناء، لتتحقق سمة الشعرية باستثمار الإمكانيات الجمالية التي تمتلكها الأجناس، فكان ثمرة ذلك تأسيس خطاب شعري حداثي. **كلمات مفتاحية:** اللغة، الشعرية، الانفتاح، القناع، أدونيس.

Abstract:

This research aims at approaching the poetic language of contemporary poem _exemplified by Adonis's poems_ which seeks to explore experimentation and openness to other forms of expressive genres, and searches for an artistic form through which its identity and aesthetic essence are achieved, embodying what fulfills its quality and representing it as a renewed discourse. Within this scope, the study at hand has arrived at the poetic interplay of artistic features, forming thereby a diverse and open literary discourse. This openness is evident through the adoption of innovative methods, such as the Mask technique which, by virtue of experimentation, trespasses the boundaries of the genres, touching their artistic features and the nature of their structure to leverage their possessed aesthetic potential. This leads to the establishment of a modern poetic discourse.

Keywords: Language; Poetic; Openness; Mask; Adonis.

مقدمة :

تروم هذه الدراسة ملامسة تخوم التجربة الشعرية لدى أدونيس، انطلاقا من اللغة الشعرية، وسمة التداخل الأجناسي التي حفل بها النص الشعري المعاصر، ومن ثم؛ يحتاج استكشاف النص الشعري المعاصر إلى القبض على دلالاته، ومعاينة علاقاته المتواشجة التي تكوّن جمالياته، لأنّ ذلك يعدّ من السمات الأساسية للنص المفتوح، ومن هذه

الزاوية، يكون الشعر العربي قد تعرض في رحاب التجريب إلى خلخلة في تشكيله اللغوي حين تمازجت عناصره اللغوية بعناصر أجناسية مختلفة، وبمقتضى ذلك تم كسر الحدود بين الأجناس، من أجل أفق شعري مغاير عما هو سائد، بدون أن تفقد القصيدة التقليدية حضورها وخصوصيتها، وفي هذا الإطار أضحت الشعر فضاءً لتزام وتداخل وتفاعل عديد الأنماط والأنواع السردية والدرامية، من خلال توظيف الحوار الدرامي، الجوقة، تعدد الأصوات، الصراع الدرامي، المشهد الدرامي، والقناع، ويعزز ذلك ما ينجزه المبدع على مستوى هذه التصوص من خروقات على صعيد البناء والدلالة، ولا شك أن هذا التداخل يسعى إلى تعميق هذه التجربة في المنجز الشعري المعاصر، لاسيما أن هذه التجربة تنطوي على أسئلة جمالية ومعرفية.

وعليه، تتجسد إشكالية الموضوع في أسئلة محورية يبحث في أهم الآليات النظرية والأدوات الإجرائية التي اعتمدها الشاعر أدونيس بغية إعطاء ديناميكية لخطابه الأدبي وتفعيله؟، ومن ثم إيصال الرسالة التبليغية والجمالية للمتلقى وفق لغة شعرية خاصة. وفي الحقيقة هي أسئلة ملحة وحاسمة تفتح نوافذ عدة، تتيح لنا الإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف استقبل النص الشعري المعاصر مسألة التداخل الأجناسي في كنف أساليب الشعرية المعاصرة؟ وما تجليات تقنية القناع في قصائد أدونيس؟ وما هي المرجعيات التي ارتكز عليها الشاعر أدونيس في استحضار الموروث التعبيري بغية تأثيث حصاده الفني؟

في حدود هذه التساؤلات أحاول تثبيت مقالي هذا. ومن أهداف هذا البحث نذكر:

- تحديد مرجعيات وآليات تقنية القناع كما تمثلها الشاعر أدونيس من خلال قدرته على إكساب نصه الشعري ميكانيزمات وعناصر تصويرية تولت نقل المشاهد بكل ملاسباتها الزمانية والمكانية.
- للكشف عن هذا التصور وفق استراتيجية تعبيرية دقيقة يراعي فيها الشاعر الإشارة، والتجاوز واختراق الثابت والمحدد، لاسيما أن هذه التجربة تنطوي على أسئلة جمالية ومعرفية.
- استجلاء دينامية التجربة الشعرية في بوتقة النص لرصد تلقيه وصولاً إلى الوظائف التي تعمل في رحمه بغية تحقيق وظائف متعددة طلباً لمتعة تذوق النص والمتعة المعرفية التقديرية لاستكناه الجاليات الموجودة في أدغاله والولوج إلى دفائنه.

أما المنهجية المتبعة فقد تمحورت كالآتي:

- افتتحت مقالي بملخص حددت فيه أهداف البحث والنتائج المستقاة منه.
- مقدمة صممتها تمهيداً مناسباً للموضوع.
- طرح إشكالية البحث ووضع الفرضيات المناسبة.
- تحديد أهداف البحث، ومن ثم الخوض في تفاصيل الموضوع التالية:

اللغة الشعرية وآفاق الكتابة الجديدة، الشعري والدرامي في الشعر العربي المعاصر، توظيف تقنية القناع في

الشعر العربي المعاصر، أفق أدونيس الشعرية.

1/ اللغة الشعرية وآفاق الكتابة الجديدة :

لا مناص أن الحركة الشعرية ارتبطت بالافتتاح من خلال مجاوزة المؤلف، وفتح الحدود السائدة وفسح المجال للرؤى المستجدة، وتماشياً مع ذلك فإن العمل الإبداعي لا تنتهي غايته في إنجازه، بل تتعداه إلى إفشاء كثير من اللذة والمتعة والتأثير في المتلقي، ما يؤكد أن مسارات التجديد التي سلكها الشعر العربي المعاصر نحو الحداثة واسعة النطاق، وإزاءها توزعت شعب البحث عن حداثة شعرية مغايرة، وهنا لم يكن بد من اختبار شعرية الافتتاح لما تنطوي عليه من إمكانات تخيلية ورؤى متجددة. وفي هذا السياق لم تكن مسألة الكتابة والأجناس بعيدة عن هذه الفتوحات الجمالية، ومن الطبيعي أن يفرض هذا الافتتاح على اللامنتهي عبر الكتابة.

وينطبق ذلك أيضاً على تلقي وتأويل القصيدة العربية المعاصرة. "وقد يشكل السؤال الأكثر إلحاحاً في الوعي النقدي الحداثي وهو يلامس ويستبطن النص الشعري المعاصر محاولاً اختراق حدوده لا للقبض على المعنى الواحد فيه، بل تحقيق اختبارات الروح والحدس والتأمل عن طريقة ملازمة شفافية المعنى وجماليته وإيقاعه والولوج إلى منعرجاته، ذلك أن النص هو المبدع في كينونة الذات وما القارئ إلا ذات أخرى تبحث عن وجهها في النص الشعري مما يفتح

المجال الأوسع أمام منهج فيه الكثير من الانفتاح يتبلور من خلال القلق والكشف،¹ لتغدو معاينة النص الشعري في كنف ذلك مفتوحة جالياً من خلال فعل التأويل الخلاق.

وضمن هذا الأفق تسعى القصيدة المعاصرة إلى مسaire المضمّر إن على مستوى الرؤيا واللغة والبناء والدلالة؛ "بغية الانفتاح على عالم أوسع. إن الشعر هو هذا البحث الدائم عن تجاوز دائم؛² لأن الكتابة الجديدة تلوذ بالصمت، وتترك لفراغها طاقة التعبير، وفحص مرجعي تؤثته القصيدة المعاصرة في كنف أفقها المنفتح؛ ذلك لأن "الشعر الذي كان يشكل فيما مضى مجرد نظرة أفقية تكون الصلة فيها، بين الإنسان والعالم، صلة شكلية، قد أصبح هنا مغامرة إنسانية، تذهب مسلحة بالشك... وإذا تم النظر إلى هذه المغامرة على أنها ضرب من المعرفة فإن الشك لا يشكل سلاحها الوحيد... وليست هذه القوانين سوى قوانين الرؤيا والمغامرة، فيما وراء حدود العالم الذي دجنه المنطق، والذي يمارس بدوره الإخضاع، إنها قوانين الحرية والابتكار،³ تكون في رؤية الشاعر - على تعددها وتنوعها - تترجم ما وراء اللغة ترجمة أكثر تنوعاً وخصباً مما يكسب النص كثيراً من التكثيف والغموض.

وعلى صعيد آخر تستوعب الرؤية التي تعتمل في رحم هذا النص لتداعيات تتوالى في أفق المتلقي وهو يقبّل النظر في شعرية النص؛ وسبر أغواره والحفر في طبقاته. بل إنه يسد فراغاته، وبملاً فجواته، ويستنطق ما لم يقله. ومن ثم، "عالم ثانٍ يخلق في القارئ، عالم مواز لتجربته بشكل تقريبي. فباستسلامه لقيادة متخيله، يبتكر الأشكال والألوان وحركة الأجساد، وباختصار، كل ما لم يعن الكاتب بتسجيله بطريقة صريحة."⁴ وهو يروم تلك المناطق البكر من التكثيف والغموض لتتوالها الذائقة بالتصفية والتهديب، وهي تتوسل مقادير الصنيع الفني.

وفي هذا الإطار، حين نعاين القصيدة المعاصرة نلفيها تقوم وتنزع إلى التعدد والتنوع والتفرد في صيغها وتراكيبها ولغتها ورؤاها، مقام العمود الفقري الذي يعطي لهيكل القصيدة اعتدالها واستقامتها، ومن ثم تترصّع على قدر من الإمكانيات الجمالية التي تحقق شعريتها، وهذا إثبات من جهة أخرى بعدم جمود النص، وافتتاحه على القراءة من خلال تحيين علاماته.

وفي هذا الصدد، تصبح اللغة الشعرية التي ينصهر فيها الواقع والحلم والاستشراف والرؤيا وعمق المعرفة وإشراق الروح مطلباً أساسياً لتشييد نص مختلف؛ هذه اللغة هي التي تتلون أيضاً بتحويلات وتوهجات الرؤيا الشعرية وهو ما يعني أن انفتاح النص مرتبط بالمحتمل، بالجدلي، باللامألوف، وباللامتناهي. وبناءً على ذلك، مثل هذا النص لا يتوخى تقديم الأجوبة الجاهزة، إنه محووس بالأسئلة التي يثيرها، والتي يستفز بها هداة القارئ. "إن النص، من هذه الزاوية، ممد خارج نفسه... وهكذا، فإن ما يتحكم في هذه السيرة أو تلك هي خصوصية الوعي الذي يستقبل النص ويصوغ سؤالاً أو أسئلة يقوم وفقها بإعادة تنظيم وحداته استناداً إلى إكراهاتها، لا استناداً إلى وجود "معنى أصلي."⁵ لأن الشاعر لا يتوقف نشاطه عند معنى واحد، بل يريد للدق الشعري الذي ارتضاه أن يتبوأ موقعاً فاعلاً في البناء الكلي للنص.

2/ الشعرية والدرامي في الشعر العربي المعاصر :

لا غرو أن القصيدة العربية المعاصرة فتحت المجال لبناء معاربتها على العديد من الأشكال السردية والدرامية المختلفة، ولعل سبب هذا النزوع، في اتجاه الشعر العربي المعاصر إلى استخدام هذه التقنيات، هو عمق الرؤية الشعرية، من هنا اتجه جل الشعراء المعاصرين من أجل تعزيز وإغناء رؤاهم وتجاربهم الشعرية، كما مكّهم ذلك من التعبير عن رؤاهم بطرق عديدة. "ولذلك لم تعد الأساليب الشعرية المألوفة تستوعب وجدان الكاتب العربي المعاصر، ولا اللعبة الغنائية التقليدية تستهويه كثيراً، اللهم إلا إذا أتى بها شاعر ذو موهبة عالية، فحاشا الشاعر الكبير يمكن أن تهديه إلى الموقف الدرامي المناسب حتى إذا اصطدم بالقيود التي تضعها الأساليب التقليدية الثقيلة في طريقه."⁶ بما يوحي برغبة في ولادة أنواع جديدة من هذا التداخل والتقارب، فهي ممارسة خرق الحدود الأجناسية، وفي هذا الصدد، تتيح الأشكال الدرامية المختلفة إمكانات فنية للشاعر من أجل فتح آفاق جديدة للشعر العربي المعاصر.

وفي هذا الأفق، نلني اتساع تجليات الكتابة الإبداعية ودلالاتها من خلال استعانة الشاعر المعاصر لمجموعة من التقنيات من أجل التهوض بالتجربة الشعرية الجديدة المختلفة، فكان تجربته تلك فضاء للعديد من الأسئلة التي جعلت القارئ أمام دلالات مفتوحة بما انطوت عليه من احتمالات، للكشف عن الخصائص الفنية التي تعطي للنص الشعري

ماهيته الفنية، من لغة وحوار وشخصيات، زد على ذلك التقنيات التي أسهمت في إثراء التصوص الشعرية بإمكانات العمل المسرحي وتعميق التجربة الشعرية وإكسابها ساحة زمانية ومكانية ورؤية نحو تعدد الأصوات والحركة والموضوعية، وأخيراً جماليات المسرح الشعري العربي المعاصر؛ التي تجعل الشاعر قادراً على الإبداع وتقديم شكل جمالي مقبول، ومن ثم، نلني أنّ الشاعر المعاصر اعتمد في البناء الشعري على عنصرَي الحدث المتوتر والصراع الدرامي المبني على التضاد، وعلى "وسائل التعبير الدرامي، من حوار وحوار داخلي وسرد وما إلى ذلك لكي يجسّم التجربة الذاتية الصرف في إطار موضوعي حيّ وملموس".⁷ فنجد إلى حد بعيد لما أثبت أنّ لغة الشعر قادرة على استيعاب الاتجاه الدرامي بارتباط جديد بين الشكل والمضمون.

ومن هنا أصبح النص الشعري المعاصر بعداً في حدّ ذاته، ساق التجربة الشعرية المعاصرة إلى تخوم المغايرة والجدّة، من ثمّ أصبح الشاعر المعاصر متوغلاً بأساليب الشعرية الجديدة بغية بلورة مساره الدرامي؛ "أعني تطور القصيدة العربية ذاتها من الغنائية الصرف ومن خاصة التجريد إلى الغنائية الفكرية التي تتمثل في القصيدة الدرامية".⁸ فالقصيدة المعاصرة تنجح باحثاً عن آتالها اللامحدود، كل ذلك انصهر في بوتقة واحدة إنها الذات الشاعرة التي حققت شعرية النص.

وما لا شك فيه أنّ إمكانات التفاعل بين الشعر والدراما أو المسرح كبيرة، مادامت عناصر الترابط بينهما ممكنة؛ بل إنّ الأمر يتجاوز ذلك، حيث إنّ الشعر نفسه كان في صورته الأولى كذلك. وفعلًا، ظلّ التعلق بينهما قائماً؛ ولذا لا غرابة أن يستحضر الشعر المعاصر الخصائص الفنية للمسرحية من أجل تعضيد نزوعه الدرامي الذي أصبح من السمات الجمالية لرؤية الشعرية الحديثة. وتشكل الدرامية مواكبة لحركة التجديد الإبداعية فتغدو سمة جمالية، وملحاً مهماً من ملامح الشعرية الحديثة، بغية جعل النص الشعري المعاصر نصاً متميّزاً باستحداث شكل تعبري جديد، يتواءم وخصوصيات الواقع المعاصر وبلورة آفاق جديدة للكتابة التي تنفتح على أجواء النص ودلالته فيتعامل الشاعر معها بما يناسب رؤاه الشعرية.

لا مناص أن القصيدة المعاصرة تهدف لتشكيل رابط فني يجمع بين الدّاتي والموضوعي والغنائية والدرامية، ذلك أنّ الشعر المعاصر أصبح البناء القصي فيه يزع نحو الخروج على المفهوم المتوارث للقصيدة الغنائية أو إلغاء الحدود بين الأجناس الأدبية في النص الواحد.⁹ ومن ثمّ نلني القصيدة المعاصرة تطمح إلى الجمع بين المنطق الغنائي، والتفكير الدرامي، مما يتيح للشاعر أن يصعد البعد الدرامي في القصيدة الدرامية من خلال تنامي الأحداث والمواقف بشكل متصاعد نحو الذروة التي يتخاها النص الشعري.

في كنف ذلك، ظلّ الشاعر المعاصر يعمل جاهداً على مسرحية النص الشعري بأساليب متعددة منها الأصوات وتداخلها مع بعضها البعض، والحوار الداخلي الذي يصوّر صراع النفس وتحولاتها، ولم يتوقف عند هذه التقنيات فحسب، فقد وظّف الجوقة (الكورس) وشحنها بنبض الحياة الذي افتقدته زمناً طويلاً، كما يحيل ذلك على السعي الحثيث للقصيدة التي هي في بحث مستمر عن صيغ جديدة مختلفة عما هو سائد، وفي الحقيقة لم تخل القصيدة العربية القديمة من النزوع الدرامي؛ في حين هذا الملح كان أكثر حضوراً في الشعر العربي المعاصر تقنياً وجماليّاً؛ ولعل ذلك يعود إلى الوعي المتقدم بهذه التقنية على مستويي المفهوم والإجراء.

وانطلاقاً من هذا المعطى أصبحت الدرامية علامة مميزة في معظم الشعر العربي المعاصر. "وكما تطورت القصة نحو القصة الدرامية، فكذلك تطور الشعر من الغنائية الصرف إلى «الغنائية الفكرية»، وصارت أروع القصائد الحديثة العالمية هي أولاً وقبل كل شيء قصائد ذات طابع درامي من الطراز الأول".¹⁰ فالدراما الشعرية أصبحت من الاهتمامات التي تصدرت اشتغال النقاد بالخطاب الشعري المعاصر، بل توسع هذا الاهتمام ليطال الشعراء والمتلقين إبداعاً وتلقياً.

واستناداً على ذلك، فإنّ النزوع إلى الدرامية لم يكن فعلاً اعتباطياً؛ وإنّما كان اختياراً فنياً، ذلك أنّه كان آلية لتعميق النص الشعري نفسياً وفكريّاً؛ ومن ثمّ سيكون هذا التكثيف أيضاً من أسباب تألقه. "فالإنسان والصراع وتناقضات الحياة هي العناصر الأساسية لكل قصيدة لها هذا الطابع الدرامي"،¹¹ الذي ينقلها من الرتابة إلى التوهج دلاليّاً، وقد تجلّى البعد الدرامي في الشعر المعاصر من خلال أشكال متعددة، ومظهرات مختلفة، ولعل أبرزها القناع، المشهد الدرامي، الصراع، والمونولوج الدرامي، وفي هذا الإطار سننوّع عند تقنية القناع.

3/ توظيف تقنية القناع في الشعر العربي المعاصر :

يعتبر القناع رؤية جديدة بالنسبة إلى الشاعر المعاصر؛ لأنه رافد جديد وجد فيه الشاعر متنفسه للتعبير عن ذاته، وعن مواقفه وأفكاره، رغم أنه ينسحب إلى الخلف تاركا الصدارة لأقنعه قولاً وفعلاً، ولم يكن ذلك سوى نتيجة محاولات جاهدة من الشاعر المعاصر وسعيه لبلورة التقنيات الشعرية وإنجاز مشروعه الفني الجديد القائم على المغايرة ومن ثم التوغل في التشكلات السردية ذات الطبيعة الدرامية، فوجد في القناع معادلاً سردياً زاخراً يتلاءم مع الدققة الشعرية لرؤيته المعاصرة، وهو امتداد منوط للتأويل الذي يتحول معه القناع إلى مجرد مؤشر على ما يقع وراءه من معاني ودلالات.

وقياساً على ما سبق، يكون تمثل الشاعر المعاصر للقناع ماثلاً في وسط دلالي يمكننا من استشفاف ظلاله الممتدة بعيداً بغية الوقوف على تقنية وسمت إبداعه بالتميز، باعتبار ما ساقه من تفتن في استحضار الشخصيات أو بالتلميح على الدلالات التاريخية للشخصية المستدعاة والتي تكون ملاذاً للتفتن بها في الضمير الجمعي، ليقع كل شاعر شعرية وتفردة في استخدامها، "ف" القناع من أبرز التقنيات التعبيرية المعاصرة (...) فهي مظهر لازدواج المرسل في الرسالة الشعرية، كما أن توتر المسافة بين الوجه والقناع من جانب، واختلاف الملامح (...) قد جعل تشكيل القناع وتوظيفه شعرياً من أهم دلائل كثافة الرسالة ذاتها، "12 فيتولى التفسير إضفاء الحركة التي تمتد إلى المعاني التي يقصدها الشاعر من خلال القناع الذي ارتآه.

وفي هذا السياق، يصبح القناع تقنية سردية في علاقتها من جهة بالضمير الذي يتقمصه، والزمن الماضي الذي يحيل إليه، هذا الزمن الذي يستعيد الشاعر من أجل نقد واقعه الهجين. فضلاً عن ذلك، فإن القناع عندما يحيل في الوقت نفسه على الماضي والحاضر، لا يفقد قيمه الرمزية، ولكنه يتلون دلاليًا بحسب رؤيا الشاعر، والمعاني التي يريد أن يستلهمها من القناع الذي يستدعيه، وعلى هذا الحال يتوسل الشاعر الرموز والأساطير والأقنعة والعبارات المنسوجة، والرؤية التي تكتنف الوجهة التي يسعى إلى تحقيقها في نصه الشعري.

وتأسيساً على ذلك، "تفتني قصيدة القناع إلى الأداء الدرامي، ذلك أن الشاعر فيها يستطيع أن يقول كل شيء دون أن يعتمد شخصه أو صوته الذاتي بشكل مباشر، لأنه سيلجأ إلى شخصية أخرى يتقمصها أو يتحد بها، أو يخلقها خلقاً جديداً، وسيحملها آراءه ومواقفه، تماماً كما يفعل المسرحي الذي يخفي وراء أشخاص من صنعه، يتولون نقل كافة ما يريد أن يقوله، أو يوحي به."13 ومنه تتعزز العلاقة التفاعلية بين القناع والدراما، ولذلك فإننا نكون بصدد تسرب بين للأجناس الأدبية؛ حين يتلون الشعر بتقنيات الدراما.

ويذهب الشاعر العربي بالرمز المتنع إلى حدوده القصوى "حين يتكرر (القناع) بأسلوبيته القصصية القائمة على التلبس، وانسحاب الشاعر من النص، ليخلي مساحته لأناً أخرى، يظل على مبعده منها ظاهرياً أو أدائياً، لكنه في الواقع، يتطابق معها إلى حد التلاشي الصوتي والوجودي والتحوي في هيئة النص وتشكله النهائي."14 وفي هذه الحالة يغدو القناع شكلاً من أشكال الوعي بالتراث، سواء أكان شخصية تاريخية أم مدينة يتوارى وراءها الشاعر من أجل التعبير عن مواقفه استشرافاً لما سيكون؛ أو تعرية لعيوب الواقع.

في ضوء ما سبق، يكون الشاعر المعاصر في تجربته محاولاً أن يرسم لشعره مسلماً جديداً بالتعبير غير المباشر وعن ما يكتنفه من مشاعر وقضايا لصيقة بواقعه السياسي والاجتماعي، وعلى هذا الأساس نلفي الشاعر قد توحد بقناعه الذي ارتضاه وجعله مطية لوجوه فنية جديدة، وعلى هذا النحو، يكون القناع قد اتخذ صوراً متنوعة، تجسيدا للموقف الدرامي، من خلال خلق مسافة بين الأصل والقناع، وهنا يغدو القناع استحضاراً للماضي، وبشكل ما هذا الاستدعاء هو إعادة قراءة للتاريخ، ومن ثم فإن عملية استحضار الموضوع تتجاوز قيمتها الفنية بل تتعداه إلى ملاسات أخرى، ومن الطبيعي أن تسهم هذه الوظيفة المزدوجة في تخصيب النص الشعري.

ولهذا يعدّ التراث مصدراً ثرياً للأقنعة المحسدة للموقف الدرامي، كما تشكل رموزه سيروية للتواصل الحضاري بين الأجيال، ولذلك كانت شخصياته الملائد الرئيسي لعدد كبير من الشعراء المعاصرين، يستوحدون دلالاتها ويتقصون ذاتها قناعاً، من أجل التعبير عن أفكارهم ومواقفهم، وبالتساوق مع ذلك، يمكننا معاينة المصادر التراثية التي جعل منها الشاعر المعاصر حجر زاوية في أقنعه على النحو الآتي: 1_ الموروث الديني. 2_ الموروث الصوفي. 3_ الموروث

التاريخي. 4_ الموروث الأدبي. 5_ الموروث الفلكلوري. 6_ الموروث الأسطوري.¹⁵ وهناك، من غير شك تداخل وتفاعل بين هذه المصادر من حيث وظائفها واشتغالها داخل النصوص الشعرية. ولهذا، نلفي معظم الأقنعة مستلهمة من التراث، إذ تتبدى من خلال شخصيات تراثية لها دلالاتها، التي يمكن أن تتقاطع مع تجربة الشاعر وما يريد استجلاءه أو يروم قوله عبر عمق القناع وإيحائه المتعددة، وتعالقه الوثيق بالراهن؛ حيث يتأهى الماضي بالحاضر، فتتحرك الأسئلة داخل القصيدة وفي الواقع الذي تكتبه، وبناءً على ذلك، يغدو القناع بالنسبة إلى الشاعر فتحاً لأسئلة الحاضر التي تؤرقه، ولكن ذلك لا يمنع الشاعر المعاصر من أن يمنح هذه الأقنعة المتنوعة المصادر روحاً جديدة، تتجاوز الإسقاط الآلي، والإحالات الجاهزة.

وتأسيساً على ذلك، فإنّ القناع الذي اتّخذهُ الشعراء وسيلة لانتقاد الوضع العربي بما فيه من حالات اليأس والذل والجمود، قد استطاع لحْدٍ بعيد في التعبير عن ذلك عبر شخصيات كان لها الأثر العميق في وجدان الوعي العربي، وأيضاً لما تنطوي عليه من دلالات تاريخية وفكرية وثقافية، تمكن الشاعر من ناصيتها للتعبير بها ومن خلالها عن الرؤى المعاصرة وفق خصوصية جالية للقناع نفسه من خلال توظيفه في النص الشعري.

تجدر الإشارة إلى أنّ القناع يستمد أيضاً حيويته وعمقه من فاعلية المتلقي؛ ذلك أنّ القارئ هو الذي يعطي للقناع امتداداً دلالياً انطلاقاً من طبيعة استقباله وتأويله، إذ للشخصيات الدرامية دورٌ بارز خاصة إذا كان توظيفها توظيفاً حركياً جديداً، بعيداً عن الوصف الجامد، فتبدو دينامية، فاعلة، متحوّلة، ودالة. وهذا التميز يجعل الشاعر يختار خصائصها الرئيسة، وتقديماً في نصه تقديماً حركياً، إمّا بشكل مباشر أو غير مباشر، على أنّ التقديم الثاني هو الأكثر تشويقاً لأنها تملك رصيذاً غنياً من المعرفة والأفعال لدى المتلقين، ولاسيّما حين تكون معقدة. وهذا يجعل المتلقي أمام صورة غير مألوفة للشخصية؛ وبالأخص من حيث تركيبها النفسي والفكري. وعلى هذا النحو، تتبين دينامية القناع من خلال استدعائه من قبل الشاعر واستقباله من طرف القارئ.

4 / أقنعة أدونيس الشعرية:

إذا سلطنا الضوء على شعر أدونيس تطالعنا بعضاً من التمازج الشعرية كقصيدة "السماء الثامنة (رحيل في مدائن الغزالي)"¹⁶، للشاعر أدونيس الذي اتخذ من جبريل قناعاً؛ "فهو رمز للقوة التي تصل الإنسان بالسماء، فني قصيدة "السماء الثامنة" التي يستغل فيها أدونيس حديث المعراج النبوي يجعل جبريل رفيقاً لمحمد عليه السلام في رحلته — كما هو في حديث المعراج — حيث: "كان البراق يقوده جبريل، وحمه كآدم، عيناه كوكبان.... الخ". ويصعد معه جبريل إلى السماء، وكلما لفت نظره شيء يسأل عنه جبريل، كما فعل محمد عليه السلام في معراجه، حيث كان جبريل هو مرشده ودليله".¹⁷ والمهم، هنا، ليس فقط استدعاء القناع من الموروث الديني فحسب؛ بل تتعزز قيمته الفنية بالدلالات الجديدة التي سيحملها.

... (ها هو بيت المقدس — المعراج

يد لي. يجيئني جبريل

باكوس ثلاث...

— خذ أيها تشاء

أخذت، كان لبنا، شربت".¹⁸

يغدو المقطع السالف مطلع استعادة واقعة الإسراء والمعراج، إذ كان كما يظهر من خلال النص جبريل عليه السلام دليلاً للرسول صلى الله عليه وسلم في رحلته السماوية، غير أنّ الشاعر أدونيس يستكشف بالموازاة مع ذلك قضايا إنسانية ومعرفية ووجودية.

وفي السياق نفسه، يوظف أدونيس قناعاً تاريخياً هو "صقر قريش" المعروف بعبد الرحمن الداخل، الذي كان له فضل تأسيس الدولة الأموية في الأندلس. ويمكن أن نتبين ذلك بوضوح من خلال قصيدته "تحولات الصقر"¹⁹ التي كشفت ما يكأده عبد الرحمن الداخل من معاناة تبدت من خلال علاقته التراجيدية بالزمان والمكان؛ لاسيّما حين يكون شاهداً على ذبح أخيه الطفل على مرأى من عينيه؛ ثم تمزقه وجدانياً بين أمجاد قومه، وتفكيره في الخلاص من مطاردته، ومرد ذلك ارتباطه المتين بدمشق/ماضيه الحميم.

لذلك، يتأهى أدونيس بصقر قريش، ثم يتصدر الشاعر المشهد، فيبدو متأرجحاً بين ماضيه وإقباله على التحول، بل التحولات التي أعلن عنها عنوان القصيدة. ومع ذلك، لا يقدم أدونيس دلالات قارة وجاهزة للمتلقى. إنه "لا يستطيع القارئ معها أن يبني حدثاً متخيلاً، ولا يمسك بعاطفة محددة، ولا يجد قولاً متماسكاً بالرغم من شذرات الإشارات المتصلة بمضغومات دلالية مسيقة، مثل تساقط النخلة على العذراء (...). لكن لا شيء من ذلك يتم استحضاره كاملاً، ولا تشغيل إيجاءاته بذاتها، بل تظل مجرد تداعيات حرة غير منتظمة تنتثر على سطح النص في اتجاهات متضاربة، فتعوق ببساطة فهمه، وتجبر قارئه على محاولة صناعة قواعد لعبته بالتأمل والمشاركة في اقتراح المعنى الممكن".²⁰ وبناءه أيضاً انطلاقاً من ملء بياضاته.

وفي كل الأحوال تظل تحولات الصقر تجسيدا لمأساة الإنسان العربي المعاصر، الذي يعاني أزمت متعددة الأبعاد والأوجه؛ لاسيما حين يحضر الماضي بأبعاده ومآسيه في حاضر أكثر سوءاً؛ ذلك ما نطالعه في قصيدة "الصقر" لأدونيس:

هَذَا فوق وَجْهِ بَيْنَ الْفَرَسَةِ وَالْفَارِسِ الرِّمَاحُ
جَسَدِي يَتَدَحَّرُ وَالْمَوْتُ حُودِيَّةٌ وَالرِّيحُ
جُثَّتْ تَتَدَلَّى وَمَرْثِيَّةٌ-
وَكأنَّ النَّهَارَ
حَجَرٌ يَقْبُضُ الْحَيَاةَ
وَكأنَّ النَّهَارَ
عَزَبَاتٌ مِنَ الدَّمْعِ،

عَبَّرَ رَيْنَتَكَ يَا صَوْتُ،
أَسْمَعُ صَوْتَ الْفَرَاتِ:

- ((قُرَيْشٌ ...
قَافِلَةٌ تُنْجِرُ صَوْبَ الْهَيْدِ
تَحْمَلُ نَارَ الْمَجْدِ)) " 21

يرسم لنا المقطع السابق مشهد الموت الذي يحاصر عبد الرحمن الداخل، فالرياح تلاحقه، وجسده متدحرج بين رياح الأهوال، بينما الجثث من حوله تتدلى، في حين تحول النهار إلى عربات محملة بالدموع، هكذا يطمس سواد الأحزان بياض النهار، الذي تحول إلى ليل من المآسي؛ في هذا الموقف الجلل لا يملك سوى أن يصرخ متفجعاً متوجعاً، طالباً من الفرات أن يكون له جسراً وقنّاعاً²² ليعبر نحو ضفة الخلاص.

لاشك أن قصيدة "الصقر" لأدونيس تصور حالة مأساوية بطلها عبد الرحمن الداخل، ولكنها في الوقت نفسه تحيل على الانبعاث، بل بناء مجد من الدرجة الصفر. لذلك "تظهر القصيدة العلاقة بين السلطة والمواطن في ذبح الطفل وملاحقة الصقر، كما تظهر قدرة الإنسان العربي الجديد على الخروج من المأساة وبعث حضارته، ويتخذ الشاعر تجربة الصقر ركيزة ليعبر بواسطتها عن إحساساته وطموحاته وتجربة الاغتراب التي يعيش فيها الإنسان العربي المعاصر. نجد الصقر في القسم الأول من القصيدة "أيام الصقر" هارباً يطلب النجاة، ويتداعى في رأسه صوتان: صوت الطغيان الذي حلّ بأخيه على نهر الفرات، وصوت قريش في مجدها السالف، ويتصارع هذان الصوتان في داخله، وهو يجتاز المسافات، وتنتامي في مخيلته فكرة بناء دمشق جديدة وإعادة الحياة إلى الأرض العربية، كل ذلك تحقق عبر اختبار فجائع الموت، الذي ظلته الغيوم الجريحة، والدماء النافرة من الجراح العميقة، والطريق يضيق بأهواله العظيمة؛ ولكنه لم يفقد عزيمته، ظل ملكاً ينجز بإباء فتوحاته، غارساً النخيل في الجرح الكبير، وابعثنا الفضاء القتل، بانينا في الغرب أندلس الأعماق، ورغم هذا الفتح ظل الإنسان فيه يبكي أخاه الذي مات بلا غسل ولا قبر ولا صلاة:

لَوْ أَنِّي أَعْرِفُ كَالشَّاعِرِ أَنَّ أُغَيِّرَ الْفُصُولَ
لَوْ أَنِّي أَعْرِفُ أَنَّ أَكَلِمَ الْأَشْيَاءَ،
سَحَرْتُ قَبْرَ الْفَارِسِ الْطِفْلَ عَلَى الْفَرَاتِ

قبر أخي في شاطئ الفرات
(مات بلا غسل ولا قبر ولا صلاة)
وقلت للأشياء والفصول
تواصل هذه الأجواء
مُدِّي لي الفرات
حلي ماء دافقاً أخضر كالزيتون
في دمي العاشق في تاريخي المسنون.²³

وعليه، يكون أدونيس قد استحضّر- شخصية عبد الرحمن الداخل في نصيه السابقين "الصقر" و"تحولات الصقر" فأضفى " الشاعر على شخصية الداخل أبعاداً حضارية، وفنية، وسياسية، وعلى الرغم من أنه استخدم الكثير من الملامح التراثية لشخصية الداخل - حتى إنه ليستخدم مقاطع كاملة من شعره - فإنه أضفى على هذه الشخصية ملامح شديدة المعاصرة، وشديدة الغرابة في الكثير من الأحيان، ولعل ذلك يمثل خرقاً لوظيفة القناع الذي يكون في الغالب رمزا تاريخياً؛ إذ تم ترهينه في نصوص أدونيس، فكشف عن المأساة الروحانية والوجودية للإنسان المعاصر. وقد استطاع أدونيس بذلك أن يجسد قلقاً إنسانياً يبدأ من داخل الشاعر، فيتجاوز البعد النفسي، ليلامس جوهر البعد الفكري، فيغدو القناع بما يحمل من ثقل تاريخي رمزا مفتوح الدلالات. وبناء على ما تقدم يكون القناع في شعر أدونيس قد تنوع من حيث مصادره، فكان دينياً وتاريخياً، وفي نصوص أخرى يستلهم الموروث الأدبي والأسطوري والصوفي.

- خاتمة:

هكذا إذن، قد بلغ البحث بعض ما ابتغاه لنفسه منذ البدء، أي؛ محاولة استكناه اللغة الشعرية بناءً على مقتضيات التداخل الأجناسي، إذ وقفنا على اللغة الشعرية وتحوم الكتابة الجديدة ومن ثم، الوقوف على تلمس أسرارها الفنية والجمالية، ومن ثم تتبعنا مرجعية استدعاء الشخصيات التراثية عبر تقنية القناع التي جعلها الشاعر أدونيس مطيعة وذريعة لرؤيته الشعرية لتنسج مضامين التجربة الشعرية، وفي خضم ذلك نلّفي قيمة الأبعاد الفنية التي تنبني في النص لتغدو تعزيراً قوياً لشاعريته ودعماً لاستمراره جالياً، زد على ذلك ما تحمله من رؤية فكرية خاصة، ومن هنا توصل الشاعر بهذه الطاقات الفنية ليمدّ قصائده بمدد دلالي غني، فضلاً عن استنثار ما في الرموز الدينية من إمكانات دلالية وتكثيف وإعجاز وجمال فني.

وعلى صعيد آخر، لأمسنا البناء الدرامي؛ إذ من أهم مظهرات ذلك تصدر النص الشعري المعاصر لمطالبات جديدة لها علاقة بالكتابة مفهومًا وممارسة، وهذه العملية تضع المتلقي أمام مشاهد متتابعة تحقق شعريّة خاصة، من خلال رسم المشاهد، وتفعيل التصوير، وفسح المجال للخيال الشعري، وما تتيح إمكانياته الذهنية من خرق لأفق التوقع.

وقد توصل البحث إلى أنّ القصيدة المعاصرة سعت أن تكون مغايرة لما هو جاهز على صعيد الرؤيا واللغة والبناء والدلالة، وهذه نتيجة طبيعية لذلك التلاحم الذي سطره الشاعر في بوتقة القصيدة المعاصرة، حيث تعالقت وتفاعلت العناصر الشعرية والسردية والدرامية، مما يعني أنّ هذه السمات الحداثيّة تمّ عن خطاب شعري يضع سؤال الكتابة من استحقاقاته وأولوياته.

- قائمة الإحالات:

- 1- عبد القادر عبو، أسئلة النقد في محاور النص الشعري المعاصر، منشورات ليجوند، الجزائر، ط1، 2013، ص 28.
- 2- كمال خير بك، حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1406_1986، ص 295.
- 3- المرجع نفسه، ص 74.
- 4- آرون كيبيدي فارغا، التامهي والتباعد، تأملات حول فن بورخيس، ضمن بورخيس صانع المتاهات، ترجمة وتقديم: محمد آيت لعميم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2016، ص 208.

- 5- سعيد بنكراد، سيرورات التأويل، من الهرموسية إلى السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان، الرباط، المغرب، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1433هـ-2012م، ص. 188.
 - 6- ضياء خضير، ثنائيات مقارنة (أبحاث ودراسات في الأدب المقارن)، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004، ص99.
 - 7- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر وقضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1983، ص282.
 - 8- المرجع نفسه، ص282.
 - 9- ينظر، محمد بتييس، الشعر العربي الحديث3، الشعر المعاصر، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1996، ص10.
 - 10- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر وقضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، ص281.
 - 11- المرجع نفسه، ص284.
 - 12- صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص100، 101.
 - 13- محسن أطلميش، دير الملاك، دراسة نقدية لظواهر الفتيّة في الشعر العراقي المعاصر، دار الرشيد للنشر، بغداد، العراق، 1982، ص103.
 - 14- حاتم الصكر، مرايا نرسييس، الأنماط النوعية والتشكلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، لبنان، 1999، ص106.
 - 15- ينظر، علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1997، ص73.
 - 16- أدونيس، هذا هو اسمي وقصائد أخرى، ضمن الأعمال الشعرية، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، 1996، ص167.
 - 17- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص96.
 - 18- أدونيس، هذا هو اسمي وقصائد أخرى، ضمن الأعمال الشعرية، ص174.
 - 19- المرجع نفسه، ص95.
 - 20- صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، ص191.
 - 21- أدونيس، هذا هو اسمي وقصائد أخرى، ضمن الأعمال الشعرية، ص87.
 - 22- المرجع نفسه، ص88.
 - 23- المرجع نفسه، ص91.
- قائمة المصادر والمراجع:**
- 1- أدونيس، هذا هو اسمي وقصائد أخرى، ضمن الأعمال الشعرية، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، 1996.
 - 2- آرون كيدي فارغا، التماهي والتباعد، تأملات حول فن بورخيس، ضمن بورخيس صانع المناهات، ترجمة وتقديم: محمد آيت لعيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2016.
 - 3- حاتم الصكر، مرايا نرسييس، الأنماط النوعية والتشكلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، لبنان، 1999.
 - 4- سعيد بنكراد، سيرورات التأويل، من الهرموسية إلى السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان، الرباط، المغرب، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1433هـ-2012م.
 - 5- صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1995.
 - 6- ضياء خضير، ثنائيات مقارنة (أبحاث ودراسات في الأدب المقارن)، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2004.
 - 7- عبد القادر عبو، أسئلة التقد في محاور النص الشعري المعاصر، منشورات ليجوند، الجزائر، ط1، 2013.
 - 8- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر وقضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1983.
 - 9- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1997.
 - 10- كمال خير بك، حركة الحدافة في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1406_1986.
 - 11- محسن أطلميش، دير الملاك، دراسة نقدية لظواهر الفتيّة في الشعر العراقي المعاصر، دار الرشيد للنشر، بغداد، العراق، 1982.
 - 12- محمد بتييس، الشعر العربي الحديث3، الشعر المعاصر، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1996.